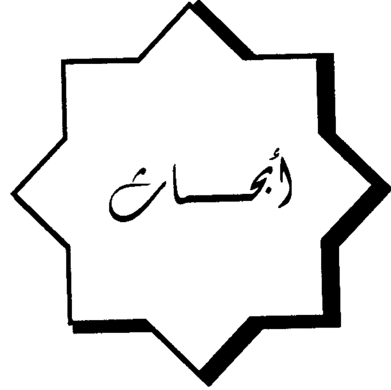


رؤية العالَم عند الأستاذ الإمام(*)

دراسة تحليلية نقدية

أ. د. سيف الدين عبد الفتاح(**)

مقدمة:

يجب الإشارة أولاً إلى عدة إشكاليات نظرية ومنهجية وتطبيقية:

فنحن أمام بعض من الإشكالات النظرية التي ترتبط بالمدخل إلى هذا الموضوع والإطار المنهاجي والنظري، فضلاً عن الإشكالية التي ترتبط بإمكانية تطبيق ذلك (النظري) في إبراز رؤية متكاملة لهذا الموضوع شديد الخطورة والذي يتعلق برسم صورة كلية «لرؤية العالَم»، وفي إطار ذلك نتحدث عن واقع دراسة الأستاذ الإمام من ناحية وواقع دراسات رؤى العالم في السياقات العربية من ناحية أخرى، عن دراسات الأستاذ الإمام فقد غلُب على بعضها بُعد سردي وترجمة لسيرته من غير الغوض في أفكاره، كما كانت هناك دراسات اهتمت بفكرة هنا أو هناك عن الأستاذ الإمام ومن ثم فقد كانت الكتابات عنه جزئية وتتبعية لمسيرة حياته، ولكن يأتي هذا البحث ليكون الخريطة المعرفية الكلية للأستاذ الإمام وشبكة العلاقات البينية فيما بين

(*) هذه الورقة مختصر لبحث مطول قدمه الأستاذ الدكتور سيف الدين عبد الفتاح في احتفال مكتبة الإسكندرية بالإمام محمد عبده في الفترة ٤-٥ ديسمبر ٢٠٠٥م.

(**) أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

مفرداته وأنساقه المفاهيمية، أما عن رؤية العالم في الدراسات العربية من المهم أن نشير إلى هذه الدراسات في الغرب وكيف أنها وصلت إلى مرحلة متقدمة من التطور النظري والميداني في حين أن الدراسات العربية ظلت عالة على الدراسات الغربية في هذا المقام.

وفي إطار هذه الرؤية الموجزة على عجل لحال الدراسات في موضوعنا هذا يأتي ذلك الاهتمام بحل إشكالات ومصادر النقص فيها من خلال إطار تنظيري ومدخل منهاجي ومحاولة أولية. ومن هنا لابد أن نستعرض بعض القضايا التي تتعلق بإشكالات المنهج من ناحية ثم إشكالات التنظير من ناحية ثانية ثم إشكالات التطبيق من ناحية ثالثة.

أولاً- إشكالات المنهج:

صعوبة استنباط وتحليل وإعادة ترتيب ما يسمى برؤية العالَم من خلال كتابات متناثرة قدمها الأستاذ الإمام وإن كان أبرزها ما أخرجه د. محمد عمارة والذي أسماه بالأعمال الكاملة إلا أنها تبقى بمثابة مادة خام في حاجة إلى تشكيلها وإعداد مقترحات بخصوصها. ومن هذه المقترحات نقدم في هذا الإطار ما يسمى بالنص المترابط Hyper Text والذي يكوّن من نصوص الإمام المتناثرة نصًا جديدًا حول رؤية العالَم ينظم ما بين لبناته وينسج ما بين خطوطه وخيوطه ويؤكد عناصر تفاعلاته وشبكيته.

ثانيًا- الإشكالات التي تتعلق بالإطار النظري:

تنبع هذه الإشكاليات التي تتعلق بالإطار النظري من أن مفهوم رؤية العالَم يرتبط بجملة من الأنساق الحضارية في تطورها وانعكاساتها المعرفية ومن هنا فإن إشكالية رؤية العالَم تثير أكثر من إشكال فرعي مثل ما هي رؤية العالَم، ما هي مصادرها، ما هي الغاية الكلية التي ترتبط بتأصيل رؤى العالم.

ثالثًا- الإشكالات التي تتعلق بالتطبيق:

وفي هذا الإطار لابد وأن نشير إلى أن بحثًا من هذا النوع يتطلب منا قراءة متقصية وقراءة متأنية لكتابات الشيخ الإمام وأبعد من ذلك قراءة ما كتب عنه ومحاولة توظيف هذه الرؤى ضمن

سياقات وأطر تتعلق ببيان رؤية الأستاذ الإمام لما نحن فيه من رؤى العالَم.

(النص وعالم الأفكار) المفاهيم الأساسية بين المدخل المنهجي في النص المترابط وأصول رؤية العالم.

كما ذكرنا آنفًا فإن هذا المفهوم اهتم به الغرب ولم تهتم به الدراسات الإسلامية بصورة كلية.

وإن كانت قد اهتمت به على مستوى المفردات والعناصر التي تكون رؤية العالَم ومن ثم سوف نعمد إلى تقديم بعض الأفكار الأولية حول ما يسمى برؤية العالم ثم نقدم تطويرًا لتلك الرؤية بما يتناسب وتلك الأفكار التي قدمها محمد عبده وتكون هذه الرؤية بذلك الاعتبار مدخلاً لتجميع أفكار محمد عبده الكلية والفرعية في نسق واحد يمكننا من الربط بين النصوص وإحداث الترابط بين مفرداتها ضمن تلك الآليات المتعارف عليها فيما أسمى «بالنص المترابط».

ومصطلح النص المترابط هو ترجمة لما يطلق عليه Hyper Text حيث أن Hyper تعني الربط ومن ثم فهي تستخدم مع العديد من المجالات...

وهناك العديد من المفاهيم والتعريفات التي تتناول النص المترابط وإن كان أبرزها أنه هو الربط الديناميكي بين الأفكار أو أجزاء وفيرة من المعلومات ووثائق أخرى.

كما أن هناك تعريفات للهايبرتكست تكشف بأنه يحاكي طريقة عمل الذاكرة لدى الإنسان.

وهناك العديد من العناصر للهايبر تكست أبرزها قاعدة بيانات النص، وشبكة الدلالة اللفظية، وأدوات الإيجاد وتصفح ودمج النص كما هناك العديد من استراتيجيات الاستخدام.

رؤية العالَم عناصرها التأسيسية ومنظومتها المعرفية والمفاهيمية:

هناك العديد من آليات الاستدعاء ومنها «جامعية الفكرة» إذ تشكل الفكرة الأساس وهي تتمثل فيما يمكن تسميته «رؤية العالَم».

إننا لا نتصور بأي حال من الأحوال أي مشروع إصلاحي من دون رؤية للعالم، تلك الرؤية التي تمثل الكامن خلف والكامن فيها تلك الرؤية وتحكم عناصر بنائها الحجحي والمعرفي، كما أنها تحدث تأثيراتها

الفكرية والثقافية والحضارية بقصد رؤية للعالَم ترتكز على الفهم وليس على الرصد أو الوصف فهي تغوص وراء الظواهر المختلفة بقصد الكشف عن أنماط التفكير والمبادئ التي وراء هذه الظواهر.

كما أن رؤى العالم وتصورات المكان والزمان ومقولات الفكر وأنساق التفكير قد تأصلت في المجتمع ذاته.

عناصر رؤى العالَم تشتمل على الذات، وغير الذات بشر/غير بشر، والزمان، والمكان ومن ثم فرؤى العالَم هي الفهم العقلي للواقع بما يتضمنه من معرفة معتقدات عن الطبيعة والإنسان. كما يقترب تصور رؤية العالَم من الصورة المكانية، والصورة الزمانية، والصورة العلاقية، والصورة الشخصيه، وصورة القيمة، والصورة الوجدانية، والصورة الشعورية ودون الشعورية..إلخ.

أما عن المستويات التي تؤلف رؤى العالَم لدى تلك الجماعة فهي متعددة منها المسلمات المقدسة المطلقة، والافتراضات الكونية، والقواعد الأخلاقية والشروط المادية، والمعرفة اليومية.

وكما قال استفستر فإن علاقتنا بالعالم كما هي قائمة في يقين إرادتنا للحياة حينما تحاول هذه الإرادة أن تدمج نفسها في الفكر ومن ثم فإن الأهمية الكبرى لرؤى العالَم تنبع من أن كل شخص وربما كل جماعة تعمل على ضوء رؤيتها للكون أي أن الصورة المنعكسة في أذهاننا عن الوجود لها تأثير مباشر في عملنا، وفي عقيدتنا وسلوكنا، وفي حياتنا الفردية والاجتماعية بحيث أن كل شخص يعيش وفق رؤيته للكون.

معمار رؤية العالَم لدى الأستاذ الإمام:

بادئ ذي بدء في إطار حديثنا عن العناصر المكونة لمعمار رؤية العالم وهندستها نبدأ بالتأسيس التوحيدي والذي يشكل «صبغة الله» التي تجمع بين عناصر الرؤية الكلية، فلا ترى الثلاثية الواصلة (الاستخلاف والتزكية والعمران) وتؤسس عناصر الكليات السبع التي تخرج جميعًا من مشكاة واحدة موحدة «مشكاة التوحيد» التوحيد بين هذه الكليات السبع من المحكمات التي تتفاعل مع بعضها البعض.

١) العقيدة:

أولى تلك الكليات والبينات التي يحويها الكتاب وتؤصل قواعد الفعل والميزان أنها تتوجه إلى تلك العلاقة الجوهرية بين عالم الخالق وعالم المخلوقين وبما تتيحه عناصر الرسالة.

العقيدة تشير في البدء إلى حقيقة الألوهية وتشير إلى العناصر الأخرى التي تتفرع عن تلك الرؤية فتقدم عناصر الرؤية ومنظومة تؤصل توجهًا وموقفًا حول الإنسان (كفاعل حضاري) والكون (كساحة حضارية) والحياة (التي تشكل كل عناصر الفاعليات والتفاعل بين الإنسان والكون...).

ثم تأتي الشريعة تترجم خصائصها التكوينية وسماتها الكلية إلى قيم أساسية تتحرك وتسري في كيان الشريعة وجزيئاتها فتجمع ما بينها وتصل بين عناصرها.

وتعتبر القيم الحاكمة ضمن منظومة كلية تحرك قيمًا ناظمة وتؤكد قيمًا تخص مجالاً بحثيًا يتعلق بكيان من الظواهر تتعلق به.

وتأتي الأمة لتشكل قيمة في ذاتها تعبر عنه من نسق الأمة هي أمة القيم حاملة لرسالة حضارية ضمن وظيفتها الحضارية والمعنوية، الأمة الجامعة قيمة تشكل عناصر الفاعلية والخيرية والوسطية والشهود.

الحضارة كبناء عمراني يحقق أقصى كمالات العمارة الإنسانية وتجعل من العمران قيمة حاكمة تضفي على الرؤية والفعل والنظم قيمة بما تؤدي إليه أو تؤثر في العمران.

وتأتي السنن كأهم قيم التحريك والسعي فتضفي على جوهرية الفقه والفعل قيمة من خلال منهج النظر السنني، والسنن هي التي تعطي وتضفي عناصر القيمة في الرؤية الكونية. وهي تجعل من عمران النفس والاجتماع والتاريخ والكون مدخلاً مهمًا لعمران المستقبل وإضفاء القيمة على التفكير في المآلات وتدبر حركة المستقبل وفاعلياته.

وأخيرًا تأتي المنظومة المقاصدية كأهم القيم المقصدية في الرؤية والفعل، الوعي والسعي، لا تأتي القيم المرتبطة بها إلا بارتباطها بمقصد كلي «الأمور بمقاصدها».

(١) التوحيد: رؤية كلية للعالم وقيمة لا تقبل التصاعد. التوحيد عند

الإمام هو المبتدى والمنتهي وهو قيمة كلية ومعرفية لا تقبل التصاعد فهو يحوط كل عناصر الرؤية للعالَم، تسري فيها الحياة. وعلى تعبير الإمام في مقدمة كتابه «رسالة التوحيد» فعلم التوحيد هو «ركن العلم الشديد».

وفي إطار استعراضه لذلك العلم يعرض الإمام مجملاً من تاريخ هذا العلم وما آل إليه من جراء ما أسماه «بالفوضى العقلية» بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم، فجاء قوم ظنوا في أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد للإسلام قِبلُ باحتماله غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارًا ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانًا، فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا في التضليل والتكفير، وغلوا في ذلك حتى قلدوا من سبق من الأمم في دعوى العداوة بين العلم والدين. وبذلك فقد خرجوا عن حقيقة التوحيد في جامعية الأمة وتماسكها اللذين يشكل التوحيد المناط الواصل بينهما.

فمن أصل العلم يحدث الوصل بينه وبين غايته وصلاً يوثق العرى «عروة وثقى لا انفصام لها» والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد، العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما وراء ذلك فنزعات الشياطين.

وإذا كان هذا هو الأصل فما الغاية من هذا العلم إلا «..القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله (تعالى) بصفاته الواجب ثبوتها له....».

ومن هنا كان من الخطورة ثبات قلوب الجمهور من الخاصة «بمرض التقليد» فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقًا لما يعتقدون فإن جاءهم أحد بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته.

فأكثرهم يعتقد فيستدل وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد. ومن مقتضيات التوحيد أنه يشكل منظومة توحيدية تفيض بالعقل والمصلحة والحكمة والقيمة والعلم والمعرفة وحركة حضارية في الحياة ترتبط بنظام العمران البشرى وعزة الأمم وذلتها، إنه التوحيد الموحد بين أصول

العقيدة الدافعة والشريعة الرافعة والقيم التأسيسية الحاكمة والأمة الجامعة والحضارة الشاهدة الفاعلة والسنن الشرطية القاضية والمقاصد الحافظة جملة يجمع فيها الإمام هذه الرؤية حينما يعقب على حكمة الله في أفعال من مقتضيات توحيده ومعرفة العقل البشري لما يحسن ويقبح وتأثير ذلك على علاقة الإنسان وفعله واختياره بتوحيد الله ووحدانيته.

صار الإنسان بالتوحيد عبدًا لله خاصةً، حرًا من العبودية لكل ما سواه، له من الحق ما للحر على الحر، لا عليّ في الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم، .. طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

أنحى الإسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين؛ وأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده إلى مملكته يقضي فيها بحُكمه وحِكمته مع الخضوع في ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته. ولا حد للعمل في منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها.

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما: استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر، وبهما كملت له إنسانيته واستعد لأن يبلغ السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التي فُطر الناس عليها، نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة.

هذا كان شأنهم في السجايا والأعمال: نسوا طهارته، وباعوا نزاهته أما في العقائد فتفرقوا شيعًا

وأحدثوا بدعًا ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الأكوان والخطر على الأفكار أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة، فصرحوا أن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم، وأفضى الغلو في ذلك بالأنفس إلى نزعة من أشأم النزعات على العالم الإنساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل وحلت القطيعه محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام.

كانت سنن الاجتماع البشري قد بلغت بالإنسان أشده وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية، وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد ومشيئته في إصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة... وجعل روح العبادة الإخلاص ...رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله في الخلق وشرف اندراجها في النوع الإنساني في الجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها.. هذه عبادات الإسلام على ما في الكتاب وصحيح السنن تتفق على ما يليق بجلال ا لله وسمو وجوده عن الأشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة.

كشف الإسلام عن النقل غمه من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الإنسان) فقرر أن آيات ا لله الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية وفيها التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقتضي فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم والمصائب التي يرزءون بها، ففصل بين الأمرين فصلا

لا مجال معه للخلط بينهما، لم يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه ولا أمًّا من أمهات الصالحات إلا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر واستقلال العقل في النظر وما به من صلاح السجايا واستقالة الطبع وماضية من إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها في سبل السعي..

٢) الإنسان والكون والحياة وعناصر الساحة الحضارية:

لا يقدم الإمام محمد عبده رؤيته للعالم بلغة فلسفية مجردة بل هو دائمًا يربط بين تلك الرؤية ومشروعه الإصلاحي ومن ثم يتحرك صوب الساحة الحضارية للعقل الإصلاحي ضمن محاولاته التجديدية للفكر الديني الإسلامي.

وذلك بفرض كسر التقليد في أسلوب التفكير وتوسيع المجال للخَلَف لإعمال العقل الذي سيأتي بعد في فهم القرآن والفكر الإسلامي للنهوض به في معترك الصراع الحضاري الثقافي والفلسفي القائم بين المسلمين وأعدائهم، ومن هنا كان لابد له أن يتصدى لأهم معضلة فلسفية عانى ويعاني منها الفكر الإنساني منذ بداية وعيه وحتى اليوم وهذه المعضلة.. هي قصة الخليقة ووجودها على الأرض والتي تبدأ بآدم.

إنها عناصر الساحة الحضارية التي تتشكل في: الإنسان الفاعل، والمعمار الكوني، وفعلٍ وتفاعل في ميدان الحياة.. صاغ كُل ذلك شعور الأستاذ الإمام وغيّره بالتحدي.. إذ لمح في المجتمعات الإسلامية تخلفًا لا يعود إلى طبيعة تلك المجتمعات ولا إلى الوحي الهادي للبشرية وطرح على نفسه ذات التساؤل الذي يشير إلى أسباب التخلف وحدد مثل آخرون أن ذلك يعود لسببين: أحدهما خارجي يتعلق بطغيان الثقافة الغربية والأخر داخلي يعود إلى تخلف بعض الذين نصبوا أنفسهم قادة وأوصياء على فكرة الإسلام وحالوا دون تداوله والاجتهاد فيه والتجديد له.

فواجه عبده مشكلة «تحدي الحضارة الغربية للإسلام والمسلمين» بتجديد الفكر الديني في فترة من أشد فترات ضعفه؛ بمنهج يقوم على إحياء

الدين وتنقيته مما لحق به من تفسيرات جامدة، والعودة إلى جوهر العقيدة كما كان الحال في عهد السلف الصالح والاستناد إلى العقل في فهم مصادرها فشكل ذلك قسمات في مشروعه الإصلاحي استندت إلى عناصر رؤية كلية للعالم.

الرؤية للإنسان: الفاعلية والمسئولية:

ضمن هذه الرؤية الكلية يأتي الإنسان بفاعليته وفعله كأحد أهم عناصر النص الحضاري.

والإنسان بهذا الاعتبار يرتبط بأصول معرفية تتعلق بعلوم الإنسان، "فعلوم الإنسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة، يضبط بها طرق الأعمال الموصلة إلى تلك الفوائد حتى لا يتخبط في سيره ولا يختلط عليه النافع بالضار...

والإنسان وفق هذه الرؤية يستمد معاني الفاعلية من اختياره، ويتولد عن اختياره مسؤولية ويترتب على هذا وذاك مساءلته.

«إن للوجود الإنساني في هذه الحياة الدنيا ثلاثة أدوار متتالية، يأخذ بعضها بأطراف بعض، الأول دور الفطرة وهو الوجود الطبيعي، والثاني دور الاجتياح وهو الحالة المدنية، والثالث دور السياسة».

... إذ لا ينال الإنسان «... الشرف الإنساني والسعادة الحقيقية والثروة الدائمة والنعيم الثابت إلا إذا صلح حال وطنه فتقدم أبناؤه وتحلت نفوسهم بالمعارف وصفات الكمال، فأخذ كل واحد حقه وأدى الواجب عليه وخدم العموم بجد ونشاط وسعى في مصالح الجميع بصدق وأمانة.. ولما كان من لوازم حفظ النوع الإنساني، المعرض للفناء والزوال، التناسل والتوالد أودع الحق (سبحانه) في طبيعة الإنسان قوة شهوية تدعوه إلى الاقتران وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات، غير أن الإنسان يمتاز على الحيوانات بقوة ذاكرة يستحضر بها ما شهده في الماضي، فيطلبه استحصالاً إن كان لذيذًا ويدافع عنه ما استطاع، والإنسان يلازم الحرص في جميع أحواله خوفًا على المستقبل، كما أن الإنسان في حاجة إلى التعاون بالضرورة وهو بفطرته لا ينظر للتعاون بجميع أفراد الإنسان فلا بد له

من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص..

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة في الإنسان لم تكن مقصودة لذاتها بل هي آلة لنيل الإنسان مآربه التي لا يستطيع المقام بدونها كبقائه في عالم الوجود يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معهم بالروابط المعروفة بصلة النسب والقرابة التي تعد من أقرب الروابط الإنسانية التي لولاها لاختل نظام الوجود الإنساني بالمرة.

والإنسان الفاعل خلق في أحسن تقويم كما خلق في نصب وكدح وتعب، كدح دائب وعمل مستمر.. ويقول (سبحانه) إنه فطر الإنسان أحسن فطرة نفسًا وبدنًا وكرمه بالعقل الذي ساد به على العوالم الأرضية واطلع به على ما شاء من العوالم السماوية.

والكدح عمل الإنسان لنفسه من خير أو شر.. ووصل الوصف (بالله) إذ قال كادح إلى ربك.. ليدل على أنه أراد من الكدح معنى فيه سير وانتهاء، فهذا النداء الرباني يحوله الأستاذ الإمام إلى نداء حركة كأنه يقول -والله أعلم- يا أيها الإنسان السادر في غلوائه الصادر في عمله عن أهوائه الغافل عن مصيره الحائر عن جادة الحق في مسيرة لا تظن أنك خالد..».

ومن جملة النظرة للإنسان، النظر النوعي الذي كان موضوع اهتمام الأستاذ الإمام مؤكدًا على رؤية الإسلام القرآنية من «.. أن الذكر والأنثى متساويان عند الله (تعالى) في الجزاء متى تساويا في العمل حتى لا يفتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها ولا تسئ المرأة الظن بنفسها فتتوهم أن جعل الرجل رئيسًا عليها يقتضي أن يكون أرفع منزلة عند الله (تعالى) منها، كانت هذه الرؤية التأسيسية للإنسان مدخلاً للشيخ الإمام جعلته يهتم اهتمامًا خاصًا بقضية المرأة والأسرة وتركيزه على إصلاحها وإقامتها على أسس سليمة باعتبارها الضمان لتكوين المجتمع والأمة، إنها الرؤية الواصلة بين الإنسان والأمة تتوسطها الأسرة لتعبر عن مجال تدريبي في شأن العلاقات والتفاعلات بحيث تؤصل

بعد التفاعل الاجتماعي للإنسان.

هذه الرؤية للإنسان طبيعة وفعلاً، دورًا ووظيفة، قدرة واختيارًا، مكنة وأهلية، عقلاً ومسؤولية، والتي تتبدى في علاقاته وتكويناته الاجتماعية والجمعية إنما تشكل منظومة كلية مترتبة فاعلة وهي منظومة متواصلة بالكون الأكبر إذ كشف الإسلام عند النقل عنه من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير «العالم» والكون الصغير «الإنسان».

الرؤية الكونية: عالم الوجود ساحة النقل الحضاري:

يستهل الإمام محمد عبده من أن العالم مخلوق لله (سبحانه) هذا الخلق الأول الذي خرج به العالم من العدم، أما الخلق الثاني فإنما يتعلق بالبعث والنشور في إشارة إلى خلق يتعلق بقدرة الله على إعادة الخلق، أما الخلق الثالث فهو عبارة عن تجدد العالم واستمراره لأن تأثير الله في الكون لا يقف عند خلقه في ستة أيام بل إن مظاهر هذا الخلق تتجدد وتستمر يوميًا كما هو مشاهد لنا.

والإنسان -عند محمد عبده- لا ينفصل عن «العالَم» فالإنسان يفكر والعالَم مادة التفكير، الإنسان ذات والعالم موضوع، الإنسان يعرف الله ويفكر في قدرته وآياته والعالم محل هذه القدرات وتلك الآيات، كما يرى أن العالم الطبيعي محكوم بالتغير والحركة وهما من أقوى أدلة وجود الخالق، ويشير إلى العديد من الآيات التي تؤكد على حركة العالم وتغيره كما أن الإمام رأى من بعض جوانب «نظرية النشوء والارتقاء» ما لا يتعارض مع الدين، فهو يفرق بين نظرية الارتقاء في مجموعها وبين إحدى نتائجها فيما يتعلق بأصل الإنسان، كما يرى أن «تنازع البقاء» «والبقاء للأصلح» من سنن الله في الكون وفي تاريخ الإنسان. وتحدث عن سنن الأكوان وكذا سنن الإنسان، والسنن الحاكمة للطبيعة والأخرى الحاكمة للنفس والثالثة التي تحكم الجماعات. وتحدث في مسائل فلسفية من الكون وحدوث العالم ومسائل دينية تتعلق بنسق الغيب من بعث وحشر.

هذه الرؤية الكلية للعالم والكون أسفرت عن نفسها في متوالية كونية منتظمة تأثر فيها بالنظريات العلمية

التي حققتها البشرية، فهو يربط بين أبحاث العلماء التي تهتم بقصة خلق الأرض وبين آيات القرآن. وقد امتدت هذه النظرية عن الإمام من مجرد الحديث عن خلق العالم إلى الحديث عن مختلف الأنساق الفكرية للإنسان والكون والمجتمع بما يمنح الحياة قيمة ومعنى وباعتبار أن السلوك الإنساني لا ينطلق ضمن أسس نفسية وظروف مادية فحسب بل يستند أيضًا إلى الإرادة الإنسانية والهداية العقلية. ومن ثم فهذه النظرة تمنح الوجود معنى كما تعمق عناصر المسؤولية الإنسانية ومن ثم تصل بين الكون والإنسان والحياة جميعًا في مسيرة تربوية حول المعمار الكوني والارتقاء التفاعلي معه.

وعلاقة الإنسان بالكون علاقة أكيدة يحددها العديد من الآيات ومنها الآية من سورة البقرة: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾.

إن أزمة الرؤية الكونية التي يلحظها الأستاذ الإمام هي أزمة حركية لأنها تترك كثيرًا من الآثار والمآلات السلبية على القيمة التوحيدية وأنساق المعارف وأنساق القيم وكذلك أنساق السلوك وقبل كل هذا أنساق المصالح والمقاصد ومن هنا اعتبر الأستاذ الإمام ذلك أكبر خذلان للدين.

كما يرى الإمام أن الكون هو كتاب الإبداع الإلهي المفصح عن وجود الله وكماله وجلاله وجماله. ومن ثم يقول أن لله كتابين: كتابًا مخلوقًا وهو الكون وكتابًا منزَّلاً وهو القرآن.

إنها إشارة مباشرة للجمع بين القراءتين: بين قراءة آيات القرآن وقراءة آيات الكون وهي التي تؤسس نظامًا معرفيًا توحيديًا يؤصل لمعاني قراءة الفاعلية في الكون، إن المعرفة الكونية والوعي الكوني أساسان بل شرطان للفاعلية الاستخلافية والعمرانية في هذا الكون.

النظرة للحياة وأنساق السلوك والوصل المتفاعل: الاستخلاف والتزكية والعمران.

الحياة -وفق رؤية الأستاذ الإمام- هي أصل من أصول الإسلام يتحرك صوب الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، وأن الدنيا مزرعة للآخرة،

الكون مجال الحركة العمرانية والإنسان محل تربية التزكية والحياة حركة تفاعل واستخلاف للإنسان في الكون.

وكان الأستاذ الإمام يشير إلى المقاصد العامة الكلية للشريعة وهي حافظة للحياة وحاضنة لفعاليات حركتها (من نفس ونسل وعقل ومال) وكانت تلك الرؤية موصولة بالنهي عن القلق في الدين.

وفي أصول فاعلية المسلمين في حياتهم وفي طلبهم والتوسل من كل طريق بالعلم الرافع والنافع للحياة، فهو يرى أن العلم مسرح نظر العقل والعمل قوة من أفضل القوى الإنسانية بل هي أفضلها على الحقيقة.

في أصول واصلة بين التوحيد والإنسان والكون والحياة تقع عمليات ثلاث: أولها- الاستخلاف، وثانيها- التزكية، وثالثها- العمران، وغايات الحياة والفاعلية فيها.

٣- الاستخلاف والتزكية والعمران: الأصول الواصلة برؤية توحيدية الإنسان والكون والحياة، ثلاثية مهمة في العناصر الكلية لرؤية العالم تشكل كما أكدنا الساحة الحضارية والفاعلية فيها، إلا أن هذه الثلاثية المتعلقة بالساحة الحضارية ترتبط بثلاثية أخرى: استخلاف تقتضيه الرؤية التوحيدية، وتزكية ترتبط بالإنسان الفاعل، وعمران يتعلق بالأبدان والأكوان والحياة في عمومها وكافة مجالاتها الحضارية.

الاستخلاف: رؤية قرآنية:

ناقش الأستاذ الإمام بعض القصص التي تشير إلى أن آدم ليس أول الأحياء العاقلة التي سكنت الأرض، وعدّ ذلك مذهبًا أول في تفسير الخليقة وإن كانوا يفتقدون لسند في الإسلام. وقد مال الأستاذ الإمام بالمراد ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ فهو خليفة عن الله تعالى، وفي هذا الإطار ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض ونحن نشاهد عجائب صنعه، فهو يتفنن ويبتدع ويكتشف ويخترع ويجد ويعمل.. أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفة في الأرض يقيم سننه ويظهر عجائب صنعه وأسرار خليقته وبدائع حكمه ومنافع أحكامه؟ وهل وجدت آية على كمال الله (تعالى) وسعة علمه

أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه ا لله في أحسن تقويم؟

التزكية: عملية تربوية:

يقول الأستاذ الإمام في تفسير آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ أي قد ربح وفاز من زكى نفسه ونماها وأعلاها حتى بلغ بها ما هي مستعدة له من كمال القوى العقلية والعملية وأثمرت بذلك ثمراتها الطيبة له ولمن حوله من الناس.

ومثلما ارتبطت عملية التزكية بعمليات تعلم الكتاب والحكمة كأنها تشكل مصادرها ومقاصدها وكأن عملية التزكية تتعلق بأنساق العقائد وأنساق القيم على حد سواء وهي كذلك ترتبط بأنساق السلوك، فيتحدث الإمام عن التزكية كتهذيب للأنساق الأخلاقية والقيمية، ووردت التزكية على سبيل المثال في مجالات وأفعال كثيرة بحيث تظهر أنساق السلوك وترقيها ومنها ما يتعلق بتزكية الأموال وتطهيرها بالصدقة مما يحفظ بركتها ونماءها...

إن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال بل نسيت معظمه في هذا الزمان وعادت إلى جهالة الجاهلية.

العمران من الدين عمارة الإنسان والأكوان والحياة:

ويؤكد الأستاذ الإمام كما جاء في رؤيته للحياة على أهمية الدارين وأنهما ليسا بديلين ولكنهما مكملان أو أن الدنيا مزرعة الآخرة، ويؤكد على أن الإسلام هاد ومرشد إلى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين، وقدم الدنيا في الذكر لأنها مقدمة في الوجود، ولذلك قال علماؤنا إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها الناس في معايشهم من الفروض الدينية إذا أهملت الأمة شيئًا منها فلم يقم به من أفرادها من يكفيها أمر الحاجة إليه كانت كلها عاصية لله (تعالى) مخالفة لدينه إلا من كان عاجزًا عن دفع ضرر الحاجة وعن الأمر به للقادر عليه فأولئك هم المعذورون بالتقصير.

من رحم هذه الرؤية الكلية لمعاني الحياة والبيان الفكري والأمة الوسط ومصالح الدارين ومصالح الدنيا كفروض دينية ولدت العملية العمرانية والواصلة التي تتعلق بالعمران بين

الإنسان والكون والحياة.

هذه هي الرؤية التي جعلت العمران -ومن أقرب طريق- من الدين ليتأسس بذلك شعارًا عمليًا حياتيًا وكونيًا، جعلت من أوجب الواجبات أن تؤصل معاني العمران في مواجهة الطغيان والخراب.

فماذا حدث من انقطاع هذه الرؤية العمرانية أو اختلال بعض أركانها وفقدان بعض عناصرها وشروطها؟ ويجيب الأستاذ في بصر نقدي حاد بأنه الغلو في الدين وإهمال الشريعة ....

إنها الواصلة العمرانية التي تقطعت خيوطها وانزوت عناصر فعلها وفعاليتها، هذه الرؤى وتفقد الأستاذ الإمام لها وافتقادها مع ضرورتها أنتجت خطته الإصلاحية.

٤- المنظومة السباعية وتشكيل رؤية العالَم لدى الأستاذ الإمام:

المنظومة السباعية تقوم على مفردات وكليات سبع، إن عقيدة لا تدفع ليست من عقيدة الإسلام في شيء، وإن شريعة لا ترفع ليست من شرعة الإسلام في شيء، وإن قيمًا لا تحكم ليست من قيم ومنظومة الإسلام في شيء، وإن أمة لا تجمع ليست من أمة الإسلام في شيء، وإن حضارة لا تفعل ولا تشهد ليست من حضارة الإسلام في شيء، وإن سننًا لا تقضى ليست من منظومة سنن الإسلام في شيء، وإن مقاصد لا تحفظ ليست من المنظومة المقاصدية للشريعة في شيء. منظومة سباعية لا يمكن أن تكون في بنيتها وعلاقاتها إلا عنوانًا للفعل والتفعيل والفاعلية.

أ) العقيدة الدافعة:

عن جملة ما اعتقده الأستاذ الإمام عقيدة دافعة إلى الفعل والفعالة والتفعيل في واقع الحياة، الإنسان الصالح المصلح لا يكون كذلك إلا بعقيدة حية دافعة، الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام ويخلق الشجاعة والبسالة ويبحث عن اقتحام المهالك ..... هذا الاعتقاد يطبع النفس على الثبات ومقارعة الأهوال، وقد أثبت القرآن الكسب والاختيار في نحو من أربع وستين آية، وقد جاء القدر في تقرير السنن الإلهية المعروفة بنواميس الكون في القرآن الكريم.....

الشريعة الرافعة:

(الشريعة الرافعة)

(حكمة كلها – عدل كلها– رحمة كلها – مصلحة كلها)

(نسق المعرفة – نسق القيم – نسق السلوك – نسق المقاصد)

كان الشيخ الإمام يجعل من الشريعة قاعدة لرؤية العالم، الشريعة حكمة في أنساق معرفتها، عدل في نظام قيمها، رحمة في تجليات سلوكيتها، مصلحة في مقاصدها وعموم كلياتها وغاياتها ...

فالإمام ينطلق في تصوره للشريعة من معنيين: المعنى الأول ثابت غير متغير وهو ما يتعلق بأحكام الله تعالى ونبيه ﷺ؛ أي الأصول الإسلامية، والمعنى الثاني وهو تفسير قواعد الدين كما انتهى إليه عمل الفقهاء والمجتهدين في الإسلام عمومًا، وبهذا تكون الشريعة مفهوما خاضعا للاجتهاد وبما يتفق مع مصلحة الجماعة؛ وذلك بتفسير أصول الدين استنادا إلى العقل، فالشريعة من خلال فقهائها «أصبحت..... جامدة، وإن الجمود في أحكامها جر إلى عسرٍ حمل الناس على إهمالها».

علاقة الفقهاء وعموم الناس بالشريعة هو الفيصل في قيام الشريعة بدورها كرافعة للنشاط والفاعلية لدى الإنسان، فيحمل الإمام على فقهاء اكتفوا بالشكل دون المضمون، الأمر الذي أدى بهم إلى الابتعاد عن الدين وأوامره.

مفهوم الشريعة والدين في متوالية ترتبط بالشريعة من النبوات والتبليغ ووظيفة الدين ودوره:

يفتتح عبده فهمه وإدراكه للشريعة من بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان وموفيه بما لا غنى عنه.. والاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله أرسل رسلاً من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيهه لذاته وإقرار بسلطانه القاهر على عباده، وتفصيل الأحكام من فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها، ومن مثالب أفعال وأخلاق ينهاهم عنها...إلخ.

النبوات ومنزلتها من الاجتماع:

كما أن منزلة النبوات من

الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص، أو منزلة العَلَم المنصوب على الطريق المسلوك، بل نصعد إلى ما فوق ونقول: كمنزلة السمع والبصر.

مفهوم الدين:

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعي الاختيارية. وهو قوة من أعظم قوى البشر وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى. فالدين حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما فتحت لأجله والإذعان لما تكشف من معتقدات وحدود أعمال.

الدين والشرعة والتوحيد:

جاء الدين الإسلامي بتوحيد الله (تعالى) في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقًا واحدًا متصفًا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة. وصار الإنسان بالتوحيد عبدًا لله خاصة، حرًا من العبودية لكل ما سواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا عليّ في الحق ولا وضيع. ومن هنا فرض الإسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه وما قرر من شرعه.

وسطية الشريعة وأهم خصائصها البنيانية:

ظهر الإسلام لا روحيًا مجردًا ولا جسدانيًا جامدًا، بل إنسانيًا وسطًا بين ذلك آخذًا من كل القبيلين بنصيب، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره، ولذلك سمي نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدَّوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية. ثم لم يكن من أصوله «أن يدع ما لقيصر لقيصر» بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده في عمله.

الشريعة الرافعة للفعل لدى الإنسان المسلم:

وهكذا كان الإسلام مهمازًا للمسلمين يحثهم على جلائل الأعمال، ومصباحًا لبصائرهم يسترشدون به في استعراف الأحوال وتقويم الأفكار، وعاطفًا يعطف

قلوبهم على الأمم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة، حتى رضيتهم الأرض سادة لها وقادة لسكانها، وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم.

أخطأ المسلم في فهم معنى «التوكل» و«القدر» فمال إلى الكسل وقعد عن العمل ووكل الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها، ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوافي رغائب دينه.

*** الحكام وارتباطهم بالشريعة:**

أما الحكام -وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه- فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم من أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة، ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الأموال لإنفاقها وإرضاء شهواتهم لا يرعون في ذلك عدلاً ولا يستشيرون كتابًا ولا يتبعون سنة، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلا حل بها العذاب.

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطئهم في أصوله وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله.

الرجوع إلى الدين والاستمساك بالشريعة:

وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة به ما هو كذلك، وهو حاضر لديهم، كان العناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به. لم يخطر ببال أحد ممن يدعون إلى الرجعة إلى الدين أن يثير فتنة على الأوربيين.

القائمون على الشريعة: الفقهاء ودورهم في جمود الشريعة وافتقادها حالة الرفع والرافعية:

إن المسلمين ضيعوا دينهم، واشتغلوا بالألفاظ وخدمتها وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل.

وقد جعل (الفقهاء) كتبهم هذه -على علاتها- أساس الدين ولم يخجلوا من قولهم: إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة، فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث

وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف في الآراء والركاكة.

ثم إن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم يُنص عليها في هذه الكتب، فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم؟! هذا لا يستطاع، ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجأوا إلى غيرها.

تعلم ما وصل إليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة، لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين: إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء، يرجع بعض أهلها إلى بعض في معرفة الحلال والحرام وليس المسؤول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون، وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة.

شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما أعوج منها، ووكلت إلى ناس منها لا علم لها بالدين ولا بالأدب، وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر الغرس، ولا تجنى الأمم منه إلا أخبث الثمر. فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به في كتابه وسنة نبيه ﷺ المجمع عليه عند السلف قاطبة لانتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهه: (ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين)، ويريد من آبائه الأولين: من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه، حتى صار إرشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشكلها على طالبه.

القيم الحاكمة والفضائل الفاعلة:

ونتناولها في نقطتين:

ج/١- أثر القيم في حياة المسلمين:

لقد اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعًا بذراع حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحتهم وباءوا بما كان لهم وما عليهم وقد حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائد. أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم إليه في تنزيله وعلى لسان نبيه

و مهده لهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة.

من دلائل المدنية أن يعرف الرجل بالصفات الفاضلة وسعة المعلومات وبذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة وهذا هو الذي يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجد وكسب الفضائل الحقيقية واستكمال العقل الإنساني فيما خلق لأجله من إصلاح أحوال المعيشة،...إلخ.

ومن الفضائل التي دونها العلماء والحكماء طلب النفع الخاص عن طريق الفائدة العامة والنفع لعموم نوع الإنسان وأن لا يجلب ضرراً على أحد المجتمعين لا في العاجل ولا في الآجل، إلا أن يتوقف عليه نفع جميعهم، ويتبع هذه الفضيلة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع، وكل واحدة منها هي أصل لفضائل لا تنحصر إلا بالذوق الطاهر والفكر الدقيق.

وهذا بخلاف ما يوجد في كثير من البلاد التي لا عناية لها بشأن الفضائل، فلا ينظر فيها إلى الشخص من حيث حليته الباطنة وزينته العقلية و لكن أهاليها ينظرون إلى الرونق الظاهر والحلية الصورية.

ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في نفوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلي. والاستبداد يقال على معنيين:

الأول- تصرف الواحد في الكل على وجه الإطلاق في الإرادة، إن شاء وافق الشرع والقانون وان شاء خالفهما، وهذا هو الاستبداد المطلق.

الثاني- استقلال الحاكم في تنفيذ القانون المرسوم والشرع المسنون بعد التحقق من موافقتهما على قدر الإمكان، وهذا في الحقيقة لا يسمى استبدادًا إلا على ضرب التساهل وإنما يسمى في عرف السياسيين «توحيد السلطة المنفذة».

ومن الواجبات الإنسانية على كل شخص أن يحفظ حقوق غيره كحفظه لحقوق نفسه فلا يأتي عند من يساويه في السن والفضل بما يوهم تهاونا بشأنه، ولا يتكلم بما يشير إلى الازدراء بقدره، بل لابد أن يكون في أعماله وأقواله حافظًا لناموس جيله المساوى له، فإن كان أكبر منه سنًا أو أرفع قدرًا وجب عليه أن يؤدي تلك

الواجبات بعينها كما على الجليس أن يعترف لمن يؤدي إليه تلك الحقوق حقه أيضًا.

«إن حياة كل أمة تقوم باستعدادها لكل زمان بما يناسبه، ومن غالب الزمان غلبه الزمان».

ج/٢- الحرية واختيار الإنسان:

فرزق الله هذه البلاد بأناس خالطوا الأمم المتمدنة وطالعوا أحوالها ورأوا ما عليه أحوالها من إطلاق الإرادة وحرية الاختيار، فطلبوا لبلادنا أن تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدينة. لكنهم أول ما بدأوا به أن أباحوا لكل شخص أن يعمل فيما يخص نفسه بإرادته، ويتكلم فيما هو مقصور على ذاته بمقتضى فكره، وشرطوا في ذلك أن تكون تلك الأعمال والأقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه، وسموا تلك الإباحة «حرية». ونادوا بها على الألسن الظالمة فكان حاصل تلك الحرية أنه لا جناح على من ارتكب أي جريمة، فقد قلدوا الأمم المتمدينة في الأحوال الجزئية الشخصية مع علمهم بأن البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها.

فلذلك اندفع الناس إلى انتهاب الشهوات، ووسعت إلى أوسع مدى لها، وكلما طلبت لذلك منعًا قال المولع هذه حرية. وأما نتاج حرية الفكر فكانت خاصة بالاعتقادات والمشارب الدينية فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه، فإن قيل له اخفض صوتك قال إننا في زمان الحرية، رغم أن هذه الأفكار التي يتشدق بها ليست مبنية على قواعد أو مبادئ بل هي ألفاظ حفظها من معاشريه ورمى من يخاطبه بالجهل والخشونة.

فهذه الحرية البتراء لم تدع لها أثرًا يحمد وإن كان الأوروباويون يحرصون عليها، فإن استعداد بلادنا لم يكن ملائمًا لمثل هذا الإطلاق الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد.

فتلك الحرية التي سموها إطلاق فكر قد اعتقت صاحبها من قيد العقل وأسلمته إلى الجهل الأعمى.

من مميزات الإنسان حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكرًا مختارًا في عمله على مقتضى فكره. كما أن الأفعال الإنسانية الاختيارية لا

تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفصل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها في مخيلتنا.

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع وما يقبح بما يجر إليه من الضرر.

ما يتعلق بسنة الله في كسب الخير والترقي من الشر والتمسك بأسباب ذلك فإن الله تعالى قد وهبنا من العقل ومن القوى ما يكفينا في توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء.

القيم والأخلاق والمعرفة:

العدالة والعلم متلازمان في عالم الوجود وينبئنا التاريخ كيف تمتعت دول بالنورين وطارت إلى أوج السعادة بهذين الجناحين حتى إذا أتت حوادث الدهر على أحد الأساسين فهدمه فسقط الآخر بأسرع وقت وانحطت الدولة المصابة بفقده إلى أسفل الدركات.

وسر ذلك أن العلم إذا انتشر في قوم أضاء لهم السبل واتضحت المسالك وميزوا الخير من الشر والضار من النافع، فرسخ في عقولهم أن المساواة والعدالة هما العلة الأولى لدوام السعادة.

وإذا رسخت قدم العدالة في أمة تمهدت لها طرق الراحة وعرف كلٌ ما له وما عليه، فتلهبت فيهم الأفكار وتلطف الإحساس وقويت قلوبهم على جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، فيدركون لأول وهله أن لا دوام لما وصلوا إليه ولا ثبات لما تحصلوا عليه إلا إذا تأيد بينهم شأن المعارف الحقيقية وعمت التربية سائر أفرادهم فيقدمون بكليتهم على الأخذ بالأسباب المؤدية لانتشار العلوم وتعميقها في سائر الأنحاء.

المعرفة في المجتمع:

البعض من الناس لا تميل نفوسهم إلى سماع نصيحة تنفعهم لو دعوها، ينفرون من الأقوال المنبهة على بعض صفات ألفوها، الحاثة على اعتناق فضيلة باعدوها.

ولئن زعموا أن مصدر النصيحة دونهم في القدر أو لا يصل إليهم في الكمال حتى يليق لإرشادهم، فعلى

فرض تسليمه لهم فإن ذلك لا يوجب نبذ أقواله ومعاداتها متى كان فيها نفع وصلاح، وليس بعار أن يسلم بالقول الحق والرأي الصواب. فالحق حق مهما كانت مصادره والصواب صواب أيًا كانت مظاهره، والفضيلة على حالها لا تتغير حقيقتها ولا تتبدل صفاتها باختلاف مصادر المنبهين إليها.

الدين هدى وعقل من أحسن في استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ما وعد الله على أتباعه؛ ومن ثم فإن الدين الإسلامي ليس روحيًا مجردًا ولا جسدانيًا جامدًا بل إنسانيًا وسطًا بين ذلك، أخذ من كل القبيلين بنصيب فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره ولذلك سمى نفسه دين الفطرة (كما سبق أن أشرنا).

د) الأمة الجامعة:

إن أمة لا تجمع ليست من الإسلام في شيء، ذلك أن جامعية الأمة هي أهم صفة لها ومناط خيريتها ووسطيتها.

تعريف الأمة- هي الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص. ومعنى الأمة يدخل فيه معنى الارتباط والوحدة التي تجعل أفرادها على اختلاف وظائفهم وأعمالهم حتى في إقامة (الدعوة للإسلام في غير بلاده أو إقامة بعض الفرائض والشعائر أو إزالة بعض المنكرات من بلد آخر من بلاد المسلمين عند تشعب الأعمال فيها) كأنهم شخص واحد.

المقومات :

١- العلم التام بما يدعون إليه، وأنه يجب العلم بالقرآن والعلم بالسنة وسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وسلف الأمة الصالح وبالقدر الكافي من الأحكام.

٢- العلم بمجال الآخر (من توجه إليهم الدعوة)، في شؤونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم أو ما يسمى حديثا بأحوالهم الاجتماعية.

٣- مناشئ علم التاريخ، ليعرف الفساد في العقائد والأخلاق والعادات فيبثون الدعوة على أصل صحيح ويعرفون كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير، وكيف يمكن

نقل هؤلاء المدعوين من حال إلى حال.

٤- علم تقويم البلدان، ليعد الدعاة لكل بلاد منها عدتها إذا أرادوا السفر إليها وهذا ما يسمى تقويم البلدان وجغرافيتها.

٥- علم النفس، وهو العلم الباحث عن قوى النفس وتصرفها في علومها وتأثير علومها في أعمالها الإرادية.

٦- علم الأخلاق، وهو العلم الذي يبحث فيه عن الفضائل وكيفية تربية المرء عليها وعن الرذائل وطرق توقيه منها.

٧- علم الاجتماع، وهو العلم الذي يبحث فيه أحوال الأمم في بداوتها وحضارتها وأسباب ضعفها وقوتها وتدنيها وترقيها.

٨- علم السياسة، وهو العلم بحال دول العصر وما بينها من الحقوق والمعاهدات ومالها من طرق الاستعمار. فالأمة التي تؤلف للدعوة في بلاد غير المسلمين المستقلة لا يتيسر لها ذلك إذا لم تكن عارفة بسياسة حكومة تلك البلاد.

٩- العلم بلغات الأمم التي تراد دعوتها.

١٠- العلم بالفنون والعلوم المتداولة في الأمم التي توجه إليها الدعوة، ولو بقدر ما يفهم به الدعاة ما يرد على الدين من شبهات تلك العلوم والجواب عنها بما يليق بمعارف المخاطبين بالدعوة.

١١- معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم ليتيسر للدعاة بيان ما فيها من الباطل.

الأركان:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المرتبة الأولى- إذا اجتمعت الأمة على تحقيق هذين الركنين فهي تكون مسيطرة على الأمم كلها ومربية لها ومهذبة لنفوسها فلا شك أن جميع الأهواء الشخصية تتلاشى من بينهم. ولا يهتمون إلا بالتعاون والاجتماع.

المرتبة الثانية- في الدعوة والأمر والنهي: دعوة المسلمين بعضهم بعضًا إلى الخير وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر والعموم فيها ظاهرٌ وله طريقان:

- أحدهما: الدعوة العامة الكلية ويقوم على هذا الطريق خواص الأمة

العارفون بأسرار الأحكام (المقاصد الشرعية) وحكمة الدين وفقهه.

- الطريق الثاني- الدعوة الجزئية الخاصة وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ويستوي فيه العالم والجاهل، فإن أفراد الأمة إذا قام كل واحد منهم بنصيحة الآخر دعوة وأمرًا ونهيًا، امتنع فشوّ الشر والمنكر فيهم واستقر أمر الخير والمعروف بينهم.

الأوصاف والأنواع للأمة:

الأمة (خيرية- وسطية):

خيرية الأمة وفضلها كما جاء في القرآن الكريم تكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .

كما أن هذه الأمة ما فتئت خير أمة أخرجت للناس حتى تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما تركتهما رغبة عنهما أو تهاونًا بأمر الله (تعالى) بإقامتهما، بل مكرهة باستبداد الملوك والأمراء من بني أمية ومن سار على طريقهم من بعدهم.

وسطية الأمة ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ :

الوسط هو العدل والخيار وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط والنقص عنه تفريط وتقصير وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة فهو شر ومذموم فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي المتوسط بينهما.

الأمة بين الخاصة والعامة:

أمة الخاصة: وهي المنتخبة من الأمة العامة يقتضي أن تكون للعامة رقابة وسيطرة على الخاصة تحاسبها على تفريطها ولا تعيد انتخاب من يقصر في عمله لمثله. فالأمة الصغرى المنتخَبة (بفتح الخاء) تكون مسيطرة على أفراد الأمة الكبرى المنتخِبة (بكسر الخاء) وبهذا يكون المسلمون في تكافل وتضامن.

الأمة الدور والوظيفة:

وهذه الأمة يدخل في عملها الأمور العامة التي هي من شأن الحكام وأمور العلم وطرق إفادته ونشره وتقرير الأحكام وأمور العامة الشخصية ويشترط فيها العلم بذلك، ولذلك جعلت أمة.

كما يناط بهذه الأمة، وهو أصل كل معروف: النظر في تعليم الجاهلين.

كما أن كل فرد من أفراد المسلمين مكلفٌ بالدعوة إلى الخير والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لأجل أن تفقهه وتقدر على تنفيذه. ولابد للمرء في حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أن على كل فرد من جماعة (أمة) المؤمنين أن يكون له إرادة وعمل في إيجادها (الأمة) وإسعادها ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة حتى إذا رأوا منها خطأ أو انحرافًا أرجعوها إلى الصواب..

الحكومة:

العلاقة بين الأمة والحكومة هي أن الأمة هي التي تقوّم عِوَج الحكومة، والمعروف أن الحكومة الإسلامية مبنية على أصل الشورى، ومن ثم فعلى الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عام في الحكام والمحكومين ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم.

التماسك:

وهو يكون بأن القائمين بالأمر والنهي أمة يستلزم أن يكون لها رياسة تدبرها لأن أمر الجماعة بغير رياسة يكون مختلاً معتلاً.

وأن تكون أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وأن ذلك يقيم الدين ويحفظه وبه تتحقق الوحدة المقصودة منه في حين أن التعرض والاختلاف يذهب بتلك الوحدة، ويتقدم القيام بالدعوة الصالحة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ثم فالتماسك يجعل (يساعد) الأمة في القيام بدورها وبدونه تنتهي الأمة ويذهب ريحها.

العمران:

يرى العلماء أن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها الناس في معايشهم من الفروض الدينية إذا أهملت الأمة شيئًا منها فلم يقم به من أفرادها من يكفيها أمر الحاجة إليه كانت كلها عاصية لله (تعالى) مخالفة لدينه إلا من كان عاجزًا عن دفع ضرر الحاجة وعن الأمر به للقادر عليه وعلى ذلك يتوقف التوسع في العمران.

السياسة والأمة:

لقد أفسدت السياسة روابط الأمة فصار الأخ يطمع في مال أخيه ويحفر له من المهاوى ما لعله هو يقع فيه.

هـ) التمدن والحضارة والعمران (الحضارة الفاعلة):

الحضارة الإسلامية حضارة المدنية:

العقيدة الإسلامية هي العقيدة السامية أو المدنية الإسلامية، فهي قد ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية الأرض رغم أنهم لم يتلمظوا (يتذوقوا بأطراف ألسنتهم) بشيء من نعيم الحَضَر، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان، ثم ما بلغوا به من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغًا مكّنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفيًّا لديها، وكشفوا ما كان مستورًا عندها، واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية.

العمران الأصيل والتمدن الزائف:

لعمر الحق، إن المفترش للحصى، المتوسِّد لحَجَر الصخر، المستكنّ في منازل الحيوانات، المتكلف في معيشته، خير من هؤلاء الناس الذين لا يقرّ لهم قرار، ولا يهدأ لهم بال، ومما يسوؤنا أن نراهم أكثر من الكثير في بلادنا، أهذا ما حسبوه تمدنًا وزعموه نعيمًا مقيمًا؟ بل إنه هو الشقاء الأبدي الجالب للفقر المدقع والعذاب الأليم.

إن بداية التقدم الأوروبي في الحقيقة كان في نفوس الأهالي وأفراد الرعايا، علمتهم الحروب الصليبية سيرَ البرِّ والبحر، وخالطوا فيها الأمم الشرقية أجيالاً، وطمعت أنظارهم لمتابعتهم، فدققوا في سبب قوة الشرقيين التي كانت لهم إذ ذاك، وبحثوا في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة، وفيما بينهم أفكار سامية، ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعًا، وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية؛ ولذلك كان الغِنى والعز مستو (مستعر) أقطارهم. فأخذ أهالي أوروبا عند ذلك تقليدهم، ولكن لا في البهارج والزخارف، ولكن في أسبابها والموصلات إليها؛ وهي توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحوهما من وجوه الكسب، فكان ذلك أساسًا للعمل وقر في النفوس وثبت في العقول وبنوا عليه ما شاءوا.

كما يمكن لنا إرجاع أسباب التقدم الغربي لسبب واحد؛ هو إحساس نفوس الأهالي بآلام صعبة الاحتمال من ظلم الأشراف (النبلاء)، وغدر الملوك، وضيق وجوه الاكتساب، ونفرة دينية على المسلمين الذين استولوا على حَرَمهم المقدّس، وقد طلبوا لذلك أسبابًا متنوعة أقواها التعاضد والتفاوت والتعاون على ترويج وسائل الكسب وافتتاح أبواب الرزق، فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات، وتتألف له الجمعيات، فكانت جرثومة تقدمهم أمرًا منبثًا في غالب الأفراد ومحرزًا في أغلب العقول؛ وهو نشاط الأهالي في اجتلاب الثروة وطلبهم لحرية العمل لينالوها، ورفضهم لتلك التقييدات التي كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية.

*** التمدن عند العرب (المصريين):**

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم إلى حالة التمدن الحاضرة والأهالي على غير علم منها بأنفسهم، فاستلفتهم العقلاء إليها ولكن لتحريك غيْرتهم على العمل اختيارًا لا بتسهيل الطرق لهم ولا بالاهتمام بالبحث عن الأسباب، ولكن جلبوا إليهم كثيرًا من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية وترى عليهم آثار النعمة يتكلمون بما لا يُفهم ويتفكرون فيما لا يعقل فشادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع الزينة، وجلبوا إلينا من مصنوعاتهم ما راق مَنْظره وطاب مَخْبره، لكننا لم نشهد مصنعه ولم نرَ منبعه. .. فأعجبنا حالهم هذا. ثم قال لنا العقلاء: كونوا مثلهم والحقوا بهم في هذه السعادة، ثم صاروا أئمةً لنا في العمل؛ فأخذنا نتشبه بهم ولكن فيما رأيناه؛ وهو الزينة والبهرجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي يلحقنا بهم في الحقيقة أم لا. ومن ذلك ترى أفكارَ الغالب منا دائمًا – عندما يجد فرصة الاقتدار– موجهةً إلى تشييد الأبنية، وتجويد وضعها، وإتقان ترتيبها، وتزيين بواطنها وظواهرها، والتوسع في لوازم المآكل والمشارب وآلاتها وأوانيها.... إلخ.

التمدن والحضارة (طرح محمد عبده للتمدن والحضارة):

كل هذا نشأ من جلب تلك الفوائد الترفيهية إلى بلادنا وطلب

التحلي بها بدون أن نحوز ما يوصلنا إليها من أنفسنا، وليتنا قبل أن نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكَم ونزينها بأنواع النقوش والفرش والأثاث، أبقيناها على بساطتها وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لا تمتد إليها الأيدي، وأحكمنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا، ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ علينا ما وجدنا وتجذب إلينا ما فقدنا، وزينا نفوسنا بالفضائل الإنسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ورفق بالملهوفين وغَيْرةٍ على البلاد وأنفة عن الصغار.

و) السنن الحاكمة القاضية:

نستطيع القول أن تفسير الشيخ الإمام للقرآن حقيق به أن يُسمى بالتفسير السنني والتربوي، الذي يعكس منظومة مفاهيمية ومعرفية وسلوكية وقيمية قادرة على أن تزكي وعي الإنسان وفعاليته. وفي هذا السياق لم يترك الإمام فرصة للتأكيد على السُّنن أو الإشارة إلى فعلها أو التنبيه على الاستمساك بها إلا وأفاض فيها وأشار إلى أنواع من سُنن أو طاقات من فاعلية تتولد عنها وتترتب على وعي وسعي بها ولها. حتى إنه أفرد عنوان «السنن الاجتماعية في القرآن والأمم – الاستقلال»، وراح يعدد السنن وينوعها في إطارٍ جامع ينظم فيما بينها ليؤكد على منظومة سننية متكاملة.

السُنّة الأولى:

إن الأمم إذا اعتُدي على استقلالها، وأوقع الأعداء بها فهضموا حقوقها تنتبه مشاعرها لدفع الضيْم، وتفكر في سبيله فتعلم أنها «الوحدة» التي يمثلها الزعيم العادل، والقائد الباسل، فتوجه إلى طلبه حتى تجده. فهذه سُنّة النهوض والدفع لمواجهة العدو ورفع الضيم وتوسل أهم أدوات ذلك.

السُنّة الثانية:

ويكمل السُّنّةَ السابقة أخرى تتعلق بشعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها إنما يكون على حقيقته وكماله في خواصّها، فمتى كثر هؤلاء الخواصّ في أمة فإنهم هم الذين يطلبون الرئيس الذي يملك عليهم. وهي سنة تحرك إقامة فروض الكفايات في الأمة وعناصر تكافلها في فروضها التضامنية.

السُنّة الثالثة:

وتتكامل عناصر المنظومة السُّننية

في استقلال الأمة وتماسكها، بحالة استطراق الوعي بالاستقلال: «فمتى عظُم الشعور في نفوس خواصّ الأمة بوجوب حفظ استقلالها ودفع ضيم الأعداء عنها فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها، فيظن الناقص أن عنده من النصرة والحمية للأمة ما عند الكامل.

الاختلاف -وإن كان سنة كونية إلهية ماضية وقائمة- فعلينا أن نتدبر معنى الخلاف المذموم المفضي لتفرق وتنازع وفشل ولذهاب الريح والأثر، واختلاف التكامل والتنوع الذي يفضي إلى الائتلاف في الكلمة والاتفاق على شأن الزعامة بوسائل الاختيار المرعية؛ من شورى وبيعة، وبالاعتبار الذي يؤكده فقهاء الأحكام السلطانية بأن الإمامة عقد مراضاة واختيار.

ومن كمال الوعي بالسنن ومنظومة معوقات فاعليتها التعرفُ على (وَهْم السُّنن) وعملية تزييفها في الإدراك والوعي، أو انحرافها في السعي. إن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة أصحاب الثروة الواسعة وأصحاب الأنساب الشريفة، فهذا الاعتقاد من السُّنن العامة في الأمم الجاهلة خاصة، فإنها هي التي تخضع لأصحاب العظمة الوهمية وهي ليست صفة لنفس صاحبها كالمال والانتساب إلى بعض العظماء في عُرْفهم.

ومن هنا كانت أصول الاختيار تتمثل في شروط إعمال السُّنن، وما يتعلق ذلك بإعمال منظومة السُّنن عامة، والسُّنن الخاصة بمجال بعينه: إن الشروط التي تُعتبر في اختيار الرجل في المُلك هي في الآية من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ (البقرة: ٢٤٧)، ومن جميل ما نظر إليه الشيخ الإمام تفسيره لهذه الآيات التي تحقق أصول الاصطفاء والاختيار.

السُنّة الرابعة:

مشيئة الله (تعالى) إنما تنفذ بمقتضى سُننه العامة في تسيير أحوال الأمم بتغييرهم ما في أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين وإيراث الأرض للصالحين.

السُنّة الخامسة:

إن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط في الظَّفَر واستقامة الأمر. وقوانين الجندية في

هذا الزمان مبنية على طاعة الجيش لقواده في المَنْشط والمكْرَه والمعقول وغير المعقول.

وبين الإفساد والإصلاح، والبحث في المصلحة بالاعتبار الذي يؤكد على منظومة «الصلاح» كمرجعية، و«الإصلاح» كعملية، و«المصلحة» كمقصد في مواجهة «الفساد والإفساد والمفسدة» أو «المضرّة»، إن هذا التفكير المنظومي السنني كان حريًا بالأستاذ الإمام، الذي اهتم مبكرًا بهذا المبحث الذي أُهمل من قبله ومن بعده، على أهميته وخطورته وكأنه أراد أن ينبهنا إلى ضرورات تأسيس «علم السنن»، وضمن هذا السياق جعلِ السنن الشرطية القاضية جزءًا أصيلاً من بنيان رؤية للعالم، ومقومًا من أهم المقومات البنائية في سنن الفطرة المعتدلة.

من هنا كانت السُّنن ضمن منظومة شرطية تحرك الأسباب والمسببات غير منافية لمنظومة الإيمان ومقتضياتها بل هي في القلب فيها من منظومة الحكمة الإلهية والعدل الإلهي.

وظلت ساحة السنن قائمة يفتقر إليها الإنسان المسلم، يطلبها افتقارًا لا استظهارًا يحرك كل ما ينفع الخلق والناس، يتدربون عليه، ويربون على قاعدة منه، فجعل حركة الشورى ملازمة لحركة العمران وتحدياته ومستلزماته، فكانت «سُنة المشاورة».

كما أن النبي ﷺ لم يضع قاعدة للشورى، وإن كان قد وضع الشورى نفسها؛ وذلك لإدراكه اختلاف أحوال الأمة في الزمان والمكان، وأنها لن تظل هكذا، كما أنه -عليه الصلاة والسلام- لو وضع قواعد مؤقتة للشورى بحسب حاجة ذلك الزمان لاتخذها المسلمون دينًا وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان وما هي من أمور الدين.

ز) المقاصد والمصالح:

المقاصد العامة الكلية: إنها المقاصد الحافظة والحاضنة للفعل الحضاري القاصد إلى المصالح، مقتضية "قواعد الأحكام في مصالح الأنام". وقد عُبّر عن المقاصد في أكثر الكلام المنسوب للشيخ بالمصالح العامة، وقد حملت مدلولين غالبين:

*المصالح العامة: بمعنى الحكم والمنافع التي راعتها الشريعة واعتبرتها، ومن باب الأصول الواجب توخيها

والمتوزعة على سائر الإنسان: بينه وبين ربه وبينه وبين نفسه وعقله وكرامته (عرضه ونسله) وماله.

* والمصالح العامة بمعنى الهيئات والمؤسسات الراعية والمراعية لهذه العلل والحكم؛ من الجمعيات الخيرية التي تحفظ على الناس أموالهم وكفاياتهم، والدول والولايات التي تحفظ النفوس والكرامات وترفع المصائب عن الأمة، وهيئات الدعوة والتعليم والتربية التي مقامها حفظ الدين والعقل من سائر مفسداتهما على الناس.

فالإسلام هاد ومرشد إلى توسيع دائرة الفكرة، واستعمال العقل في مصالح الدارين وكل ما أمرنا ا لله (تعالى) به وهدانا إليه، هو من أمور ديننا.

*** المقاصد وغايتها المصالح:**

إقامة صرح مجد الإسلام على تحقيق المقاصد (المصالح):

وقد قام صرح مجد الإسلام عدة قرون، كان المسلمون كلما عرض لهم شيء بسبب التوسع في العمران يتوقف عليه حفظ الأمر وتعميم دعوته النافعة قاموا به حق القيام وعدوا القيام به من الدين.

ومضوا على ذلك قرونًا كانوا فيها أبسط الأمم وأعلاها حضارةً وعمرانًا وبِرًّا وإحسانًا، إلى أن غَلا أقوام في الدين واتبعوا سَنن مَنْ قبلهم في إهمال مصالح الدنيا... وكان من أثر ذلك أن أُهملت الشريعة؛ فلا توجد حكومة إسلامية على وجه الأرض تقيمها؛ لأنه لا يوجد من أهلها من يصلح لحكم الناس في هذه العصور التي اتسعت فيها مصالح الأمم والحكومات بالتوسع في العلوم والصناعات وارتباط العالم بعضه ببعض. «العمران من الدين».. شعار يطلقه الأستاذ الإمام لتحريك فعاليات المسلم والوعي بمصالحه والوعي بسُننه ومقاصده.

السعي نحو المصالح والاجتهاد المقاصدي أصل بنياني من الشريعة وفطرة الخلق:

مضت حكمة الله أن تكون شريعته جامعة لمصالح عباده، جارية على سنن الفطرة المعتدلة التي فطرهم عليها ولله العزة بمنع الناس من بعض الشهوات وبتكليفهم الإنفاق من فضول أموالهم، وبتكليفهم تحري

الإصلاح. ومن حكمته أنه منعهم ما يضرهم من ذلك، وأن كلفهم ما فيه مصلحتهم، وأن هداهم إلى وجه منفعة النافع ومضرة الضار.

قضت حكمة الله أن يبين هذا في الأحكام المتعلقة بمصالح الناس ومنافعهم؛ بأن يوجه عقولهم إلى ما في الأشياء من المضار والمنافع، «فيظهر لكم الضار منها أو الراجح ضرره؛ فتعلموا أنه جدير بالترك فتتركوه على بصيرةٍ واقتناعٍ بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة، كما يظهر لكم النافع فتطلبوه».

(٥) رؤية العالم بين النموذج المعرفي وبنية المشروع الإصلاحي:

يحوط بهذه الرؤى السابقة نموذجًا معرفيًا بمفرداته وعناصره، ومشروعًا إصلاحيًا كأحد النواتج عن رؤية العالم وعملية تفعيلها على أرض الواقع. ونتناول هذين الأمرين على النحو التالي:

٥/أ) أولاً- النموذج المعرفي لدى الأستاذ الإمام بأركانه الأربعة وشقه في رؤية العالم:

في إطار التعرف على رؤية العالم ربما كان التساؤل حول المنتوجات التي تتولد عن هذه الرؤية وتشتق عنها؛ وهى أمور حقيقة بالبحث المتأنى وربما المستقل من الأسئلة التي يجب التوقف عندها للربط بينها وبين الرؤية الكلية للعالم، هل تقدم رؤية الأستاذ الإمام «نموذجًا معرفيًّا إرشاديًّا» ومنظومة من المفاهيم الحضارية الكبرى «مفاهيم المظلة» وبعض منظوماتها الفرعية من مفاهيم مشتقة، وهل تولد مثل هذه الرؤية الكلية ضمن ما تولد «منظومة إصلاحية» متكاملة الجوانب متنوعة المجالات متماسكة الأركان؟

إن ما قدمناه من رؤية كلية لعناصر ساحة حضارية تتعلق بأصول التوحيد الذي شكل مرجعية ضامة لتوحيد أنساق هذه الرؤية على تنوعها، ومن رؤية للإنسان والكون والحياة، أو للتراب والإنسان والوقف على معادلة مالك بن بنى، هذه الرؤية للساحة الحضارية وعناصر الفعل الحضاري وتفاعلاته إنما تترابط بمنظومة سباعية شكلت رؤية للعالم واضحة المعالم والمصادر والمرجعية تتشابك خيوطها من عقيدة دافعة، وشريعة رافعة، وقيم تأسيسية حاكمة، وحضارة فاعلة

وشاهدة، وأمة جامعة، وسنة شرطية قاضية، ومقاصد حاضنة حافظة، سباعية تتحرك في رؤية الأستاذ الإمام فتصل خيوطها بعناصر رحمها من نموذج معرفي إرشادي ومنظومة مفاهيمية حضارية، وبرنامج إصلاحي متكامل. وكان نسيج هذه المنظومات فضلا عن شبكيتها، أمرًا أتاحه فعل هذه الدراسة توضح البنيان المعماري في هندسة رؤية العالم وتحريكها في الوعي وتفعيلها في السعي.

ويشكل من خلال تلك المفاهيم الحضارية العامة منظومة دافعة لتأويل هذه المفاهيم في مرجعية ضافية: العقيدة والاجتهاد والسنة والمقاصد، مرجعية توحيدية تجعل من هذه المفاهيم ذات ارتباط وثيق بعروة وثقى لا انفصام لها تحقق مضمون الاستقامة أصول الحركة والفاعلية العمرانية، ومن هنا فإنها تكون مفاهيم وشبكة قد تتخذ شكل شجرة المفاهيم من مفاهيم الجذر ومفاهيم الساق الواصلة، ومفاهيم الفروع المتوالدة، ومفاهيم الثمار النافعة، عمليات موصولة ومتواصلة تحقق للمنظومة المفاهيمية فاعليتها الأكيدة في هندسة العمران للإنسان والكون والحياة. وولد كل ذلك شبكة لدى الأستاذ الإمام حملت عناصر أجدر بالتناول لديه وفي أجندته حددتها عناصر «المشروع الفكري».

للأستاذ الإمام برنامج ومشروع إسلامي «ليؤسس في ذلك منظومة إصلاحية متكاملة، حاول قدر طاقته أن يحسن معمارها وهندستها إلا أنه من شأن مفكري الإصلاح وتصورهم أن يحاولوا استيعاب فكرة الإصلاح كشأن عام شامل في وجهته وأدواته، إلا أن عملية التوقيع والتنزيل الإصلاحي تترك من الإشكالات الضاغطة وهذا ما سنقف عليه على عقل المصلح خاصة لو كان فيلسوفا على حد وصف العقاد للأستاذ الإمام ألا يحسن الكلام في كل شيء وكل متطلبات مشروعه الإسلامي خاصة حينما يكون تحت الوطأة.

هل لو كان الأستاذ الإمام حيًّا بيننا أن يتعرف على مآلات مشروعه الإصلاحي الذي كان أحد المواد المفضلة للسجال بين فرقاء تنازعته الاتجاهات وحاولت ان تختص به التوجهات واختطف مشروعه

الإسلامي أو يكاد وتبقى منه من كثرة الشد والجذب تشرذمات وتمزقات ، وبدا لكل فريق يقتنص كلمة من هنا أو من هناك يلزمه ما لا يلزم، ويقوّله ما لم يقل، أو يؤوّل ما كتب ما لم يرد فصار مشروعًا للسجال والحروب الأهلية الفكرية أكثر من كونه مشروعًا إصلاحيًا حمل بذور مشروع قابل للتكامل وربما الاكتمال والتكميل. وبدا الشيخ الإمام يتفرق مشروعه بين القبائل الفكرية.

البحث في المشروع الفكري والإصلاحي للشيخ الإمام يحمل عناصر أجندة بحثية تستحق الدرس والفحص والبحث، فهل لنا ان نتلقف خيط الإصلاح من الأستاذ الإمام نصوب ونسدد ونقارب ما أمكننا ذلك ضمن حركة وعى منهجي من غير إلزام بنتائج توصل إليها بحكم السياقات التاريخية التي أحاطت به، أو شغلت تفكيره وشخصيته إلا ان الثابت في مشروعها الإسلامي ليس بالشيء اليسير، وهو أمر يجب ان نفتح فيه ملف ذاكرة مشروعات الإصلاح والنهوض.

٥/ب) المشروع الإصلاحي وبرنامج الإصلاح التعليمي والتربوي:

في إطار رؤية الأستاذ الإمام الموصولة بأصل رؤيته الكلية للعالم، تأتي كمحصلة رؤيته في مشروعه الإصلاحي، والذي أسسه على قاعدة من التربية فإن «... من يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه.. بدون إتعاب فكر ولا إجهاد نفس..» ويستدرك على نفسه حتى يوضح موقفه على أرض الواقع في فكرتين أولهما قبل الاحتلال وثانيهما من بعده.

وفي سياق معايشة محمد عبده ظروفا اجتماعية وسياسية وحضارية متردية تمثلت في ضعف السلطة وتدخل الأجانب وجمود المجتمع وركوده، تحرك الأستاذ الإمام لينظم أفكاره حول مشروعه الإصلاحي بدءًا من المفهوم ومرجعية (الإصلاح والتغيير الاجتماعي)، ودور الفرد في إصلاح المجتمع، والتأسيس المعرفي والمنهجي للمشروع الإصلاحي، وآليات الإصلاح والتغيير الاجتماعي،

وأهداف المشروع الإصلاحي ومقاصده.

جمود المسلمين وعملية الإصلاح:

أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

ومن الناس من إذا ذاكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها والطرق الموصلة إلى جلب المنافع ورفع المضار والوسائل المؤدية إلى تقويم حال الأمم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شاكل ذلك ثم إذا فوض إليه إمرة تلك المصالح رأيته أبعد الناس عن الخير وأقربهم إلى الشر واستنكف عن المساواة واستهجن معنى العدالة وإن كان يعبر عن نفسه بلفظها وسار مع أغراضه وألفاظه وجعلها قانونًا يتبع...

كان الإسلام دينًا عربيًا ثم لحقه العلم فصار علمًا عربيًا بعد أن كان يونانيًا ثم أخطأ خليفة في فهم السياسة فاتخذ من أعداء الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيرًا له، ظن أن الجيش العربي قد لا يكون عونًا فخليته علوى، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي ﷺ فأراد أن يتخذ له جيشًا أجنبيًا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطفها بإحسانه فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانة من الملك وفي شق أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك، هناك استعجم الإسلام وانقلب عجميًا.

وقد أكثر من ذلك الجند وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة في قبضتهم.

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف واتخذوا من عقيدة القدر مثبطًا للعزائم وغلاً للأيدي عن العمل.

هذه السياسة- سياسة الظلمة

وأهل الأثرة- هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات وأخلدت به إلى يأس يجاور به ... فجل ما تراه الآن مما تسميه العامة إسلامًا فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج.

ومن ثم لنستطيع أن نقول أن علة عرضنا للمسلمين عندما دخلت على قلوبهم عقائد أخرى ما كانت عقيدة الإسلام في أفئدتهم وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم هو السياسة كذلك هي تلك الشجرة الملعونة في القرآن: عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين هوى السياسة.

إن حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها دون أن يكون لها دخل في رؤية لصالحها لا يمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة وإلا فسدت.

من يريد خير البلاد فعليه أن يسعى لها في إتقان التربية وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه إن كان طالبًا حقًا.

إن أول ما يجب أن يبدأ به: التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالضريحة وحمل الحكومة على العدل والإصلاح ومنه تعويدها الأهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتهم إياهم في الأمر بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتعرف المفيد.

إن إصلاح البلاد ماديًا وأدبيًا لا يكون إلا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف وإطلاق الحرية السياسية التي يعتبرونها حياة للأمة.

وحدد الإمام ضمن مشروعه الإصلاحي مجالات حاول نظمها في ذلك المشروع، منها ما يتعلق بالجانب السياسي، ومنها ما يتعلق بالقضائي والمالي والاقتصادي ومنها ما يتعلق بالمسألة الاجتماعية والمرأة والأسرة، ومنها ما يتعلق بالجانب اللغوي والقيمي والثقافي فضلاً عما أكده من عمليات الإصلاح الديني والمؤسسي

(الأزهر) التي كانت موضع اهتمامه وهمه، أبدى كل ذلك ضمن مشروع إصلاحي تدريجي تربوي قد يبني الأمة وربما يهادن الاحتلال وفي كل الأحوال ظل مشروع عبده مشروعًا إشكاليًا لأنه نظر إلى الغرب نظرة مركبة حيث كان موضع التحدي.

رؤية العالم ومشروع الإصلاح:

في هذا السياق الذي يؤكد على مضمون رؤية العالم عند الأستاذ الإمام فإنه من خلال ذلك البحث نستطيع أن نقول إنه لا يمكن فهم المشروع الإصلاحي للأستاذ الإمام إلا بفهم الرؤية الكاملة والكافية لرؤية العالم عنده، وبما يؤصل هذا المعنى الذي يؤكد أن تلك الرؤى الإصلاحية ستثير في كل آن عدة إشكالات وجب على المصلِحِ أن يجيب عنها:

الإشكال الأول- يتعلق بثنائية الداخل والخارج.

الإشكال الثاني- يتعلق بـ: هل يتم الإصلاح من أسفل أم من أعلى.

الإشكال الثالث- يتعلق بهل يتم الإصلاح من داخل النظام أم من خارجه.

الإشكال الرابع- هل يتم الإصلاح تدريجيًا أم جذريًا.

الإشكال الخامس- هل يتم الإصلاح عنيفًا انقلابيًا أم تربويًا سلميًا.

الإشكال السادس- هل يتم الإصلاح دفعةً واحدة بكافة مجالاته أم أنه يمكن تجزئته، وإن كان من الممكن تجزئته فهل يمكن الحديث عن ميزان الأولويات على التوالي أم من الأفضل أن يكون على التوازي.

الإشكال السابع- الذي على المصلح أن يقف عنده هو الإشكالية المتعلقة بأدوات وآليات الإصلاح، وماذا عن آليات الإصلاح إن فسدت، ووسائله إن عقمت؟!

وكذلك فإنه يجب على المصلح أن يتبصر مليًا حول غاياته الإصلاحية ومقاصده الكلية من عملية الإصلاح؛ فيصلٍ بين المقاصد والوسائل وصلاً جميلاً يحقق المقصود ويستثمر كافة الوسائل المتاحة أداءً وفاعلية.

كما أنه كذلك يجب أن يقف عند ما يمكن تسميته بقابليات الإصلاح داخل المجتمعات، وكيف تتكون وتتراكم وتتفاعل وتتحول من قابليات

إلى مكنات، ومن مكنات إلى فاعليات؟!!

كما أنه يجب على المصلح أن ينعم النظر فيما لو كان هذا النمط من الإصلاح تحاربه أو تعوقه أنواع أخرى تتسمّى بالإصلاح وهي تفسد، فتكون لديه من العقلية الفارقة الكاشفة بين الإصلاح الضال والإصلاح الأصيل، بين الزائف منه والمكين فيه.

أبعد من ذلك عليه ألا يهمل كيف يتحرك وينطلق بمشروعه الإصلاحي -في سياق عملية اتصالية كبرى- بحيث تشكل له القاعدة التي يستند إليها وتحميه وتحصنه، كيف تولد عملية الإصلاح عناصر التصحيح الذاتي وقواعد التجدد الذاتي؛ بحيث تحدث تراكمًا إصلاحيًّا يمنع ذلك المشروع من الانحراف في أي مرحلة من مراحله.

ضمن هذا السياق لابد أن ننظر إلى أن ذلك المشروع الإصلاحي للأستاذ الإمام يرتكن إلى قواعد نظرته للإنسان، وأن المشروع الإصلاحي يجب ألا يقترن بأي عملية تقليد تترجم في النهاية إلى عقلية عوام أو نفسية عبيد أو تفكير قطيع.

ومن هنا بدا له في مشروعه الإصلاحي أن يحرر العقول كمقدمة لتحرير الإنسان، إلا أنه -وهو يؤدي ذلك- أداه، بنوع من المهادنة للاحتلال الإنجليزي الذي أحدث إشكالاً في رؤيته الإصلاحية، بل في رؤية مَنْ عاصروه ومن لَحِقوا به.

والأسئلة لا زالت تسأل حتى يومنا هذا. يعني ذلك أن المصلح في شأنه لابد أن ينظر إلى أن عملية الإصلاح ليست عملاً فرديًّا؛ ومن هنا تثار ثنائية أخرى: ثنائية الفرد أم الجماعة والمجتمع، وأين نحن من كل ذلك؟

إنها إشكالات لازلنا في أتونها حتى هذا اليوم وكأن الزمان قد دار دورته، ولا زالت الإشكالات تدور هنا وهناك في العراق، وفي مشروع الشرق الأوسط الكبير وفي مشروعات (مبادرات) «إصلاح» تقدمها السلطات والأنظمة، وفي مشروعات تقدمها قوى سياسية مختلفة واتجاهات فكرية وأيديولوجية متنوعة، وفي مشروعات إصلاحية غابت عن الأمة فغابت عنها الأمة!!

ربما يكون ذلك هو السبب

الأساسي أو الرئيسي في تهاوى كثير من مشروعاتنا الإصلاحية. إن الأمر هنا قد يتعلق برؤية النبي شعيب -عليه السلام- لبرنامجه الإصلاحي: **﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** (هود: ٨٨).

الإصلاح وفق دعوة النبي شعيب:

(إرادة)، (واستطاعة)، (وآليات ووسائل وطاقات وإمكانات وقدرات)، (وتوفيق من خلال العمل بسنن الإصلاح وقوانينه الجوهرية) التي تتحكم به وفيه، وهو نوع من قدرات في العمل تؤكد أن من حُسْن التوكل الأخذ بأسباب الإصلاح، ثم تأتي بعد ذلك (حالة المراجعة والإنابة) التي تؤكد على عناصر التصحيح الذاتي والتجدد الذاتي .. عمليات بعضها من بعض تشكل رؤية إصلاحية لابد أن نتبصر كل إشكالاتها، فإن المصلح ليس هو ذلك الفرد الذي ينتج «أفكار إصلاح» أو ينطلق إلى جزء يصلح فيه، ولكنه لابد أن يؤسس قاعدة للإصلاح تستطيع أن تصمد في وجه تلك الإشكالات وتتفاعل معها بميزان الإصلاح حتى لا يُسرق المشروع الإصلاحي كل مرة، ولا يُركب من صنوف فاسدة قد تدعي الإصلاح، ولا يرتكن إلى أدوات قاصرة وربما فاسدة.

إنها السنن التي علمنا إياها الإمام محمد عبده، وذكّرنا بأهميتها، فإن للتفكير سُننًا، وإن للتدبير سُننًا، وإن للتيسير سُننًا، وإن للتغيير سُننًا، وإن للتأثير سُننًا:

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، هل يمكننا أن نفهم في النهاية أن الإصلاح ليس إلا عملية إنسانية تقوم على: كيف يفكر الإنسان في عقيدته، وشرعته، وأنساق قيمه، ورؤى حضارته، وجامعية أمته، كيف يتعلم على سنن عمليات التغيير وبلوغ المقاصد الكلية من أقصر طريق وأعمقه وأفعله.

هاجس الغرب: رؤية العالَم ورؤيته للاحتلال:

هاجس الغرب عند الأستاذ الإمام دفعه أو ضغط عليه ضغطًا دافعًا تارة، وتارة أخرى ضغط عليه ضغطًا مانعًا. في الأولى رأى حال المسلمين وجمودهم وضعفهم ورأى حال الغرب فقرر - وفق مسيرة اجتهادية وجهادية وتجديدية - أن يصدع بتحرير الفكر والخروج عن ربقة التقليد وعقلية القطيع وحالة العوام، وجعل من تحرير

الفكر مقدمة لتحرير الإرادة واستقلالها، فخاض في مجالات التجديد على تنوعها ليؤكد على منظومة تجديدية فكرية ومؤسسية تتحرك وتفعل بجامع التربية وأصول التعليم، كان هذا هو التحدي الدافع الذي قدّم وبحقٍّ استجابة فاعلة في أقصى صورها.

إلا أن الغرب كذلك توالى في تأثيره فضغط على الأستاذ الإمام ضغطًا مانعًا تمثل في موقفه من الاحتلال البريطاني بعد عودته من المنفى، فمن نافلة القول أن نؤكد مع من ذهب إلى أن الأمر الذي لم يختلف من حوله موقف الأستاذ الإمام هو عداؤه لاحتلال الإنجليز مصر، وكراهية هذا الاحتلال، وثقته في زواله، وعمله من أجل حرية البلاد..

إلا أن الأمر المختلف عليه وفيه قد يتعلق «بالأسلوب» الذي يتبعه لبلوغ الغاية وتحرير البلاد من هذا الاحتلال.. فبعد العودة من المنفى سلك طريق التربية والتعليم، وتكوين القيادات الفكرية المتحررة والمستنيره، ظنا منه أن هذا الطريق التدريجي سيثمر -ولو بعد أزمنة طويلة- تحقيق حرية البلاد عندما تنمو شخصيتها فتصبح أعظم وأقوى من قدرات الاحتلال. ضمن هذه الرؤية برزت مقولات بدت تبريرية لموقفه، ومراسلاته مع «بلنت» وعلاقاته مع «كرومر» دالة في هذا المقام، وبدت رؤاه شبه متناقضة يتحدث فيها عن الأثر السلبي للاحتلال والأثر الإيجابي له في آن واحد.

فبعد عودة الأستاذ الإمام إلى مصر في سنة ١٨٨٩م ابتعد.. عن الاشتغال بأمور السياسة العليا والمباشرة، والتعرض لعلاقة الحاكم بالمحكوم ومنها الموقف من سلطة الاحتلال.. فما كان ذلك إلا مقدمة لانغماسه في السياسة وتوليه المناصب. وقد جعل الإمام موقفه هذا مذهبًا يعتنقه وينصح به الآخرين لا في مصر وحدها، بل وفي غير مصر، ولا إزاء الإنجليز فقط بل وإزاء غيرهم من المحتلين الأوروبيين، فهذا موقفه الناصح لعلماء الجزائر يدور في ذات الدائرة (الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية)، (والجد في الكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة الشريفة)، يترافق مع ذلك (مسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة، وبهذا يتم لهم ما يرجون من مساعدة الحكومة الفرنسية لهم على ما قبله، فإن الحكومات في جميع الأرض يضيقون على البلاد التي

يستعمرونها ماداموا يعتقدون أن أهلها ساخطين عليهم، أو لهم ضلع مع حكومة أخرى.. وهذا الإعراض عن السياسة لا ينافي مخاطبة الحكومة فيما يرونه ضارًا بهم من القوانين والمعاملات..).

وفي حوار له مع بعض أنصار الاحتلال الإنجليزي في سنة ١٨٩٨ يحدد رأيه في القضية، فيرفض مبدأ الاستسلام للاحتلال، والتسليم بأبديته، ولكنه يرفض أيضًا طريق العمل السياسي المباشر، والتهييج الوطني كطريق للتحرير من الاحتلال فيقول: «إن العمل لإخراج الإنجليز من مصر عمل كبير جدًا، ولا بد في الوصول إلى الغاية من السير في الجهاد على منهاج الحكمة، والدأب على العمل الطويل ولو لعدة قرون، لا أنه عمل صغير يكفي فيه الكلام في المجالس والكتابة في الجرائد..».

واقتضاه ذلك أيضًا رفضه للموقف الانعزالي الذي يرى مقاطعة الأجنبي لدوافع وطنية، وأفتى بالاستعانة بالأجانب المخالفين لنا في الدين والجنس، ولقد اعتقد كذلك أن التربية والتعليم وهي مطلبه الأساس لن تكون محل معارضة من سلطات الاحتلال.. ورأى أنه «إذا كان أمر يصح أن يتلاقى فيه الطرفان، ويكون قاعدة للاتحاد فإنما هو التعليم العام؛ إذ لا يمكن أن يوجد تناقض بين مصلحة الإنجليز ومصلحة المصريين في هذا المقصد..»، .. ومدّ له في هذا الرأي رؤية للأمة الإنجليزية التي هي «من بين الأمم الأوروبية... تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم.. فهي وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره».

وهكذا اجتمع العديد من العوامل الذاتية والموضوعية لتجعل للرجل هذا الموقف من سلطات الاحتلال، واشتبك مع الأمور وتشابكت لديه فاختلت شبكية رؤيته فلم تبصر غاية الإبصار، ولم تتضح الصورة غاية الوضوح.

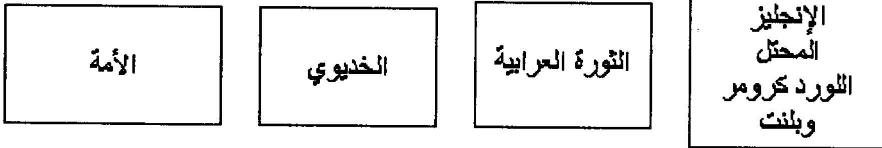
وكما حدث هذا الاشتباك في المواقف حيال الحضارة الغربية، حدث حال اشتباك آخر في استخدامه المفاهيم، فتارة يستخدم المفهوم بمعانيه الغربية وتأويله بمعانيه الإسلامية المختلفة في العبارة الواحدة، وهو أمر يوهم بالمعاني ويغيم من المواقف حيال بعض ما قال وبعض ما أدى.

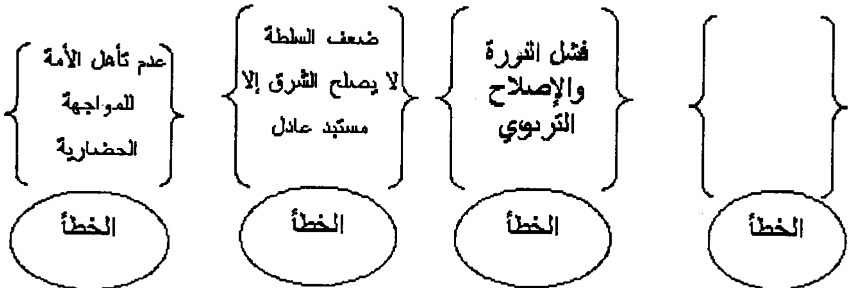
واشتبكت وتشابكت رؤاه تارة مع أستاذه الأفغاني وتارة مع تلاميذه على

تنوعهم، فتطورت آراؤه وألزمت المعاني ورتبت المواقف في حال اشتباك أثر على النظر الكاشف والفارق. وإذ اتسمت الرؤية الكلية للعالم عند الإمام بالصفاء فإن اشتباكها مع الواقع وتنزيلها الإصلاحي أصابه ما أصابه.

وفي إطار تفاعل عالم الأشخاص مع عالم الأحداث مع عالم الأفكار يأتي نموذج الأستاذ الإمام، الحدث الكاشف والفارق الذي يمثل اللحظة الكاشفة الفارقة هو «الاحتلال والنفي»، هذا الحدث ترك تأثيرات لا يمكن تجاهلها أو غض الطرف عنها في شخصية الأستاذ الإمام.

وكان لواقعة الاحتلال شخوصها (الإنجليز، الثورة العرابية، الخديوي) مثلث الاحتلال، والثورة، والسلطة، والأمة وتشابكت الشخوص وتشابكت الأطراف، فأثر كل ذلك -وتحت الوطأة- على عالم أفكار الأستاذ الإمام:





نرا دمت لدى الاستاذ الإمام

ضغوط الاحتلال وضغوط الفشل وضغوط الضعف وضغوط الجمود، ومع تشابك هذه الضغوط، تشابكت الخيوط واهتزت الشبكية واضطربت الرؤية، فأدى مع هذه الضغوطات إلى جملة من الاستبعادات شكلت أخطاء جوهرية في مشروعه الإصلاحي والتفكير بوسائله وآلياته، وتنزيل هذا المشروع على واقعه، ومن هنا يمكننا تفسير التباس رؤية الباحثين حول الأستاذ الإمام، وبمطالعة سيرته والتوقف عند مآلات مشروعه فإننا نجد أن هذا الاشتباك خرج منه الأستاذ الإمام ولم يكسب إلى صفه أيًا من هذه القوى، فأدى ذلك إلى ضعف أثر مشروعه الإصلاحي في واقع الأمة، وبقي من مشروعه أجندته الفكرية التي ذكرت بموضوعات أهملت، ودعوته التجديدية التي بثت روحًا جديدة، ومشروعه الإصلاحي والتربوي الذي وجب الالتفات إليه.

